قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير سورة يس :

بسم الله الرحمن الرحيم

 وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إني إذاً لفي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أي لينصرهم من قومه ، قالوا وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة . وقال ابن إسحاق عن رجل سماه عن الحكم عن مقسم أو عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : اسم صاحب يس حبيب وكان الجذام قد أسرع فيه . وقال الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز : كان اسمه حبيب بن سري . وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه وقال السدي : كان قصارا ، وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا ، وقال قتادة : كان يتعبد في غار هناك .

 قال يا قوم اتبعوا المرسلين يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم اتبعوا من لا يسألكم أجرا أي على إبلاغ الرسالة وهم مهتدون

فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إن يردني الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوني مما أنا فيه ﴿ إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله .

وقوله تعالى ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكعب ووهب يقول لقومه :

﴿ إني آمنت بربكم ﴾ الذي كفرتم به ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاسمعوا قولي ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي إني آمنت بربكم واتبعتكم . وهذا الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى والله أعلم .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكعب ووهب رضي الله تعالى عنهما : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه . وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد

قومي فإنهم لا يعلمون . فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله .

الشرح :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : ففي قول الله تبارك وتعالى في تتمة قصة القرية التي بُعث إليها جمع من المرسلين وبينوا صحة رسالتهم لقومهم ، وما جاوبهم قومهم به ، بين جل وعلا أن أولئك الأنبياء كان لهم أنصار ، بمعنى أنه استجابت لهم طائفة من أهل تلك القرية ومنهم هذا الرجل الذي جاء يسعى يبين صحة ما جاءت به الرسل ويبين أنه آمن بما جاءوا به ، ويبطل دعاء تلك الآلهة التي آمن بها تلك الرسل ، ويبطل ما جعله أصحاب القرية لتلك الآلهة ، الشفاعة ونحو ذلك .

قال جل وعلا **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين**

قوله هنا : **وجاء من أقصا المدينة رجل** قال كثير من المفسرين في تقديم قوله من أقصا المدينة على الرجل فيه فائدة ، وهي أن هذا الرجل كان من فقراء الناس ولم يكن من أشرافهم ولا من أغنيائهم ، وذلك لأن العادة السالفة في المدن أن الأغنياء والأشراف يسكنون وسط المدينة وإنما يسكن أطرافها من لم يكن من أهل الشرف أو من لم يكن من أهل المال .

فقوله هنا : **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى** هذا فيه تنبيه لهذا المعنى . وهذا يوافق ـ يعني هذا الاستنباط ـ يوافق ما ذكره المفسرون مما أخذوه عن أهل الكتاب من أنه كان نجاراً أو كان قصاراً أو كان إسكافاً ، أو نحو ذلك من المهن التي تدل على أنه ليس من ذوي الشرف وكذلك تدل على أنه ليس من ذوي الغنى ....

قال سبحانه هنا : **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى**

وقوله هنا من أقصا المدينة : هذا فيه دليل على ما ذكرت لكم سالفاً من أن القرية والمدينة بمعنى واحد في بعض الاستعمالات ؛

لأنه قال في أولها : ﴿ **واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية** ﴾ وهنا قال : ﴿ **وجاء من أقصا المدينة** ﴾ فالقرية هي المدينة الكبيرة ، وتسميتها بالقرية باعتبار التقري وهو الاجتماع ، وتسميتها بالمدينة باعتبار المدون بالمكان وهو ملازمته والإقامة به .

قال هنا : ﴿ **رجل يسعى** ﴾ ورجل في تنكيره فائدة وهي تعظيم ما سيأتي من وصفه ؛ لأن التنكير في علم المعاني له فوائد ومنها أن يكون التنكير للتعظيم . قال هنا جل وعلا : يسعى : ﴿ **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى** ﴾ والسعي هو المشي السريع . وكونه جاء يسعى هذا يدل على أنه ممن استجابوا لدعوة أولئك الرسل استجابة خالطت قلبه وخالطت بشاشة فؤاده ، فجاء يسعى ليس ماشياً فحسب بل جاء ناصراً للرسل ناصراً لدعوة الحق ، بسعي وحركة حاثة ، وهذا يدل على عِظم شأنه وعِظم نصرته لأولئك المرسلين .

قال هنا في وصف ما قال : ﴿ **قال يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ هذا فيه القول الجميل الذي يدل على الحق ويرشد إليه بعبارة حسنة طيبة . كان من قوله لأولئك الأقوام الذين وعدوا الرسل بالرجم وبأن يمسهم منهم عذاب أليم ، قال لهم : ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ وهذا يستفاد منه أن الداعية إلى الحق يكون داعيا إليه بالموعظة الحسنة ، كما قال جل وعلا : ﴿ **ادعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ حتى ولو كان المدعو عنده نوع تكبر فإنه يقال له بالتي هي أحسن لعله يتذكر أو يخشى .

وقد يكون في بعض الحالات إذا كان الإرشاد بالحسنى لا ينفع ، قد يُتخذ غير ذلك ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ **وإني لأظنك يا فرعون مثبورا** ﴾ وكذلك

....

في قوله جل وعلا : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ والمسألة لها مزيد تفصيل من حيث الأحكام .

قال هنا جل وعلا :] **قال يا قوم اتبعوا المرسلين** [وفي قوله اتبعوا أنه أمرهم بالاتباع ، والاتباع معناه أن يقبل القول بحجته ، أن يقبل ما جاءوا به ويقبل حجتهم ؛ لأن قبول القول من

غير حجة لا يسمى اتباعاً ، فالاتباع هو ما كان فيه مع الحجة فيه ما كان فيه مع الاتباع الحجة . وقد يُنزل الباطل ، الحجج الباطلة منزلة الحجج الحق في أنها تتبع ، وهذا يوجه به قول المشركين : ﴿ **بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ ونحو ذلك .

إذاً فالقول إذا كان اتباعه من غير حجة فلا يسمى اتباعاً وإنما قد يسمى تقليداً وقد يسمى اتباعاً من جهة أنه يظن أن حجته صحيحة .

﴿ **اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون** ﴾ يعني أن من صفة المرسلين أنهم لا يسألون الناس أجراً على دعوتهم ، ولا يطلبون أموال الناس ، كما جاء مبينا في دعوة كل رسول في سورة هود وفي غيرها وكذلك في سورة الشعراء : ﴿ **وما أسئلكم عليه من أجر** ﴾ كل رسول يقول ذلك ، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو آخر الرسل قال ذلك أيضاً ﴿ **ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾ . فإذاً هذا فيه التنبيه بأن الداعية إلى الله جل وعلا يتبع الرسل في ذلك وأنه يدعو غير مريد أخذ الأجر وهو المال على دعوته . وهذا أنسب للإخلاص وأنسب لعدم قدح الناس فيه .

قال هنا جل وعلا : ﴿ **اتبعوا من لا يسئلكم أجراً** ﴾ وقد تقدم معنا أن الأجر هو ما يكون في مقابلة العمل ، قد يكون مالاً وقد يكون غير مال . ﴿ **اتبعوا من لا يسئلكم أجراً** ﴾ يعني من الأموال أو من الجاه أو من السمعة ونحو ذلك . فهم لا يطلبون أجراً على دعوتهم لا من المال ولا من غيره ، وهذا دليل على الإخلاص ؛ لأن

الذي يطلب شيئاً على دعوته قد يكون غير مخلص في ذلك قد خالف في ذلك هدي الأنبياء جميعاً ، كما قال جل وعلا : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله** ﴾ قال العلماء في قوله إلى الله تنبيه على الإخلاص وأنه لا يرجو مع دعوته إلى الله جل وعلا شيئاً أخراً .

] **اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون** [هذه جملة حالية يعني الواو حالية ، هم مهتدون حال ، والاهتداء تقدم معنا معناه ، أن من معانيه ، من معاني الاهتداء الهداية التي هي هداية الدلالة الإرشاد وهداية التوفيق والإلهام ، يعني هم مهتدون فيما دلوا

وأرشدوا أنفسهم إليه وما دلوا وأرشدوا غيرهم إليه ، وهم مهتدون أيضاً إذ وفقوا لذلك الإرشاد ولتلك الهداية .
فإذاً قوله : ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ حال ، وسبب ذكرها هنا أنه قد يقوم قائم ، ولا يطلب أجرا ، ولا يكون من المهتدين ، فليس علامة صحة الدعوة ، ولا صحة القصد أن لا يسأل أجراً ، بل قد يكون من الناس لا يسأل أجرا ، وهو على غير الهداية ، وهذا مما يلتبس على كثير من الأفهام ؛ لأنه قد يظن مع التجرد من طلب الدنيا ، أن من تجرد على الصواب دائما ، وهذا ليس بصحيح ، بل لابد أن يكون مع تجرده أن يكون على حال الهداية ، ولهذا نبه هنا بقوله : ﴿ **اتبعوا من لا يسئلكم أجرا** ﴾ وليس ذلك بكاف ، بل قال والحال : أنهم مع عدم سؤالهم إياكم الأجر ، حالهم أنهم مهتدون .
فإذًا لا يحمد عدم سؤال الأجر على الدعوة فحسب ، بل إنما يحمد إذا كان معه الهداية لطريق المرسلين .
قال : ﴿ **وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه يرجعون** ﴾ ، ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني** ﴾ المراد بالفطر هنا الخلق ، فطر الشيء بمعنى خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، والمراد بكونه فطر يعني : خلق على غير مثال سابق

....

لأصله ، يعني أنه إذا قيل في الإنسان ، أن الله جل وعلا فطر فلانا ، يعني خلقه فهو يتفق مع أصل اللغة لكن جهة النظر إلى أصل الإنسان ، لا إلى هذا المعين ، والفطرة في القرآن متنوعة ، ومن معانيها الإسلام كقوله : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ فالفطرة التي فُطر الناس عليها هي توحيد وإخلاص الدين له ، والإسلام العام الذي اجتمعت على الدعوة إليه الرسل جميعا .
ومن الفطرة الخلق ، وقال جل وعلا : ﴿ **الحمد لله فاطر السماوات والأرض** ﴾ ، ومما ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنه ، بل رضي الله عنهما أنه كان يقول : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض ، حتى أتاني أعربيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . يعني ابتدأتها ، فصار معنى الفطر الابتداء .
هنا في قوله : ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني** ﴾ يعني خلقني أول مرة ، خلقني ولم يشاركه أحد في خلقي ، خلقني على غير

مثال سابق ، يعني أن جنسي لم يشركه أحد جل وعلا في خلق شيئا منه ، فهو جل وعلا هو الخالق وحده ، وهو الذي فطر العبد وحده .
وإذًا هو المستحق أن يعبد وحده ، وهذا فيه استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية ؛ لأن توحيد الفطر ، الذي هو توحيد الخلق هذا من توحيد الربوبية ، واستدل به الرجل المؤمن هذا بقوله : **ما لي لا أعبد** هذا توحيد العبادة **وما لي لا أعبد الذي فطرني** يعني لما كان هو الذي فطرني وحده ، هو الذي خلقني وحده ، فإذًا هو المستحق لأن يعبد وحده ، وهذا استدلال يكثر في القرآن جدا ، من الاستدلال بتوحيد الربوبية على ما يستحقه جل وعلا من توحيد العبادة وتوحيد الإلهية .
قال : **وإليه ترجعون** ، **ما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون** ، وفي تقديم إليه فائدتان :

....

الفائدة الأولى : تناسب النظم .
والفائدة الثانية : وهي المهمة في علم المعاني ، أن الرجوع سيكون إليه وحده جل
وعلا ؛ لأن من المتقرر في علم المعاني أن تقديم ما حقه التأخير لابد أن يكون لفائدة ، ومن الفوائد الاختصاص ، وهي المناسبة هنا .
فإذًا الرجوع مختصا بأنه إليه وحده ، وإذا كان كذلك ، فهذا منه ، من هذا الداعية تنبيه لهم بأعظم موعظة لأنهم سيرجعون إليه جل وعلا ، وإذا كان الرجوع إليه وحده دونما سواه .
إذًا تبطل دعوى إلهية غيره ؛لأن تلك الآلهة لا يُرجع إليها بل الرجوع إلى الله وحده ، وإذا كان الرجوع إلى الله وحده دون شيء من الآلهة ولا يكون معه إذا رجع العباد إليه شيء من الآلهة التي ادعاها أصحاب القرية فمعنى ذلك إبطال دعوى أن تكون تلك آلهة مع الله جل وعلا .
قال هنا : **ءأتخذ من دونه آلهة** وهذا فيه إنكار عليهم لأن الهمزة تأتي لمعان في القرآن ومنها الإنكار ، وضابط همزة الإنكار في القرآن أنها ما يكون بعدها جملة باطلة من حيث المعنى ، فمثلاً هنا في قوله **أأتخذ من دونه آلهة** إذا أزلت الهمزة صار الباقي : أتخذ من دونه آلهة ، وهذا باطل لأن قائله لا يتخذ مع

الله إلها آخر . فإذاً تكون الهمزة للإنكار على أولئك الذين اتخذوا مع الله جل وعلا آلهة أخرى ، ومثالها الذي يمثل به كثيراً قوله جل وعلا : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً** ﴾ إذا أزلت الهمزة صار المعنى ، صار الباقي : أصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا . وهذا باطل ، وإذا كان ما بعد الهمزة باطلاً بعد إزالتها صارت الهمزة للإنكار .

وتفارق في القرآن همزة التوبيخ ، وهمزة التوبيخ ضابطها أن يكون ما بعدها واقعاً ، إذا كان ما بعدها واقعاً فتصبح الهمزة للتوبيخ ، إذا كانت الهمزة خرجت عن

....

أصلها ، وإلا فالهمزة قد تكون للتسوية وقد تكون معادلة لأن وقد تكون للاستفهام الحقيقي وقد تكون للنداء ، لمعاني كثيرة ، لكن هذان المعنيان يلتبسان كثيرا وهما همزة الإنكار وهمزة التوبيخ ، وهذا ضابط كله .

إذاً فقوله هنا : ﴿ **ءأتخذ من دونه آلهة** ﴾ هنا إنكار وهذا الإنكار مضمن التعريض بهم والاستهزاء والسخرية بهم ؛ لأنهم اتخذوا معه آلهة ، إذاً يُنكر مخاطباً نفسه وفي ضمن هذا الإنكار الذي خاطب به نفسه إنكار على أولئك ، وإذا كان يُنكر على أولئك فهذا الإنكار مضمن الاستهزاء والسخرية بهم .

قال : ﴿ **ءأتخذ من دونه آلهة** ﴾ من دونه يعني معه ، وفي قوله من دونه تنبيه إلى أن كل إله أتخذ مع الله جل وعلا فهو دونه جل وعلا إذ ليس لله جل وعلا مثيل ولا شبيه ولا نظير ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

قال : ﴿ **إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون** ﴾ إن يردن الرحمن بضر : يعني إذا أرادني ربي الذي رحمني بالهداية ورحمني بأنواع الرحمة إذا أرادني بضر فإن أولئك الآلهة لا تنفع وشفاعتهم إذا سألتهم الشفاعة شفاعتهم عند الله لا تنفع ؛ لأن الشفاعة عند الله لا تكون إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، والله جل وعلا لا يرضى الشرك فلا تنفع شفاعة أولئك .

وحقيقة الشفاعة أنها ضم طلب إلى طلب فيكون ثم طالب وثم طالب آخر يشفع للطالب الأول ، يعني يكون ثانياً مع الأول ، فيكون شفعاً له بعد أن كان الأول فرداً ، سميت شفاعة لضم

طلب غير الطالب إلى طلب الطالب ، فيكون واحد له حاجة والثاني ليس له نفس الحاجة ولكنه ضم طلبه إلى طلب من له الحاجة تقوية له .
قال هنا ءأتخذ من دونه آلهة **إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون** لأنه كما قال الله جل وعلا : **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور**

....

الرحيم .
ذكر بعدها حالهم وحاله لو قبل عبادة غير الله معه ، قال : **إني إذاً** يعني لو اتخذت آلهة لو اتخذت شفعاء مع الله **إني إذاً لفي ضلال مبين** ، وفي قوله :
(إني) و (لفي) هذا فيه تأكيد لحقيقة الأمر وهو أنه لو اتبع تلك الآلهة أنه لفي ضلال مبين ، وهذا فيه حكمة في الدعوة لأنه يوجه الخطاب إلى نفسه والمقصود هم
 ءأتخذ من دونه آلهة **إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ني إذاً لفي ضلال مبين**
فهو يخاطب نفسه مقرراً البراهين التي دلتهم على الحق وهو بذلك يريد القوم أولئك الذين كذبوا الرسل .
والضلال : في اللغة مصدر ضل يضل ضلالاً بالضاد أخت الصاد وهو الترك والنسيان ، قال جل وعلا : **أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ويلزم في بعض الأحيان مع الترك والنسيان يلزم منه ذهاب الشيء من تركه ، إذا كان يحتاج إلى رعاية يحتاج إلى عناية ثم تُرك يلزم منه أن يذهب ولا يبقى ، وهذا من جنس أو هذا في معنى قوله جل وعلا : **ءإذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد** فقوله : **ءإذا ضللنا في الأرض** هذا لأنهم يعني إذا ذهبت أجسامهم في الأرض يعني تُركت رعايتها ، هذا من هذا الأصل .
 إني إذاً لفي ضلال مبين يعني هذا الأصل وهو الترك الواضح للحق ، إني إذاً لفي ضلال : يعني إني إذاً لفي ترك لما لا يسوغ تركه إني إذاً لفي ترك للحق ترك بين واضح لا مراء فيه ، هذا من العرف الاستعمالي أطلق الضلال على ترك الحق ،

الضلال أطلق على ترك الحق ونسيانه وعدم العناية به سواء كان عن قصد أو عن غير قصد . قال هنا : ﴿ **مبين** ﴾ ومبين تقدم لنا أن مبين في القرآن قد تكون من أبان اللازمة أو أبان المتعدية في أول القصة أو في أول السورة .

....

ثم توجه بقوله : ﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ إني آمنت بربكم : فيها قولان ـ كما سمعتم في كلام ابن كثير ـ هل توجه بذلك إلى المشركين أم إلى الرسل ؟
قال طائفة : توجه بذلك إلى المشركين ، وفائدة هذا التوجه إقامة الحجة عليهم وإبراز قوته في تمسكه بالحق ومجابهتهم بذلك وضوحاً وعلناً ﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ اسمعوا أني آمنت فإذا كنتم تريدون أن تفعلوا شيئاً فافعلوه .
قال آخرون : هو توجه بهذا الكلام إلى الرسل ، وهذا القول أقوى من الآخر لأنه قال: ﴿ **إني آمنت بربكم** ﴾
والإيمان هنا بالرب هو الإيمان الذي تبعه التوحيد ، والإيمان بالرب الذي تبعه التوحيد هو الإيمان برب الرسل ، وأما رب أولئك فإنهم مشتبهون فيه ، ولهذا قال ابن كثير ـ فيما سمعت ـ إن الأمثل هو القول الثاني وهو أن يكون الخطاب هنا للمرسلين ﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ يعني اسمعوا شهادتي هذه ثم قتله الأقوام ، قتلوه فقال الله جل وعلا له : ﴿ **قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون** ﴾ .

﴿ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين * وما

أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾
قال محمد بن إسحاق [1] عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه [2] من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها .
وقال مجاهد قيل لحبيب النجار ادخل الجنة وذلك أنه قتل فوجبت له فلما رأى الثواب ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ . قال قتادة لا تلقى المؤمن إلا ناصحا لا تلقاه غاشا لما عاين ماعاين من كرامة الله تعالى ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه ، وقال ابن عباس نصح قومه في حياته بقوله ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته في قوله ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

الشرح :

(1) (إسْحَاقَ) بالفتح لأنه ممنوع من الصرف : محمد بن إسْحَاقَ ، أسماء الأنبياء جميعاً ممنوعة من الصرف إلا خمسة أسماء ـ خذها قاعدة ـ إلا خمسة أسماء وهي : النبي صلى الله عليه وسلم محمد ، وشعيب ، وهود ، وصالح ، ونوح . وأما نوح وهود يجوز فيه الوجهان لأنه ساكن الوسط .

(2) (قصبه) هي الأمعاء ، حتى خرج قصبه ، تصير فاعل . مثل ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في عمرو بن لُحي ، قال : رأيته يجر قصبه في النار . يعني أمعاءه ، القصب : هي الأمعاء .

وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن ابن مجلز بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين بإيماني بربي وتصديقي المرسلين ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضي عنه فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا ابن جابر هو محمد عن عبد الملك يعني ابن عمير قال : قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إني أخاف أن يقتلوك ، فقال لو وجدوني نائما ما أيقظوني ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((انطلق)) فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدا بما يسوءك ، فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لالات وإن العزى لاعزى أسلموا تسلموا يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ((هذا مثله كمثل صاحب يس))

** قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم أنه حدث عن كعب الأحبار أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم أخو بني مازن بن النجار الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة حين جعل يسأله**

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول له أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول نعم ، ثم يقول أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول لا أسمع فيقول له مسيلمة لعنه الله أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول نعم فجعل يقطعه عضوا عضوا كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه . فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب وكان والله صاحب يس اسمه حبيب .

وقوله تبارك وتعالى : وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبا منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود فيما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه أنه قال في قوله تعالى وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين أي ما كاثرناهم بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ، قال : فأهلك الله تعالى ذلك الملك الجبار وأهلك أهل انطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية .

وقيل وما كنا منزلين أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم ، وقيل المعنى في قوله تعالى : وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء أي من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة ، قال قتادة فلا والله ماعاتب الله

قومه بعد قتله إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون .
قال ابن جرير : والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جندا . قال المفسرون بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ بعضادتي باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم يبق بهم روح تتردد في جسد .
وقد تقدم عن الكثير من السلف أن هذه القرية هي انطاكية وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره وفي ذلك نظر من وجوه :
[أحدهما] أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون إلى أن قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم إن أنتم إلا بشر مثلنا [والثاني] أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة [1] وهن القدس لأنها بلد المسيح وأنطاكية

الشرح :

(1) بتاركة : البتارك جمع بطريك . يعني التي فيها بتاركة أو بطاركتهم ، يعني التي فيها رؤساء الرهبان ، يعني بلد مرجعية عند النصارى .

لأنها أول بلد آمنت بالمسيح عن آخر أهلها والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطده ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين . فإذا تقرر أن انطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم والله أعلم .

[الثالث] أن قصة انطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ذكروه عند قوله تبارك وتعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني قال : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني حدثنا حسين الأشقر حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
((السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى عليه الصلاة والسلام يوشع بن نون والسابق إلى عيسى عليه الصلاة والسلام صاحب يس والسابق إلى محمد صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه)) فانه حديث منكر لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر وهو شيعي متروك ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

الشرح :
هنا في قوله تعالى : ﴿ **قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ قيل ادخل الجنة : يعني الجنة التي هي عند الله جل وعلا
﴿ **قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ هذا فيه إظهار لعظم شفقته على قومه ومحبته الخير لهم ، وهذا كما كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول :
((اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون)) قد جاءه جبريل فقال : لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت وهذا ملك الجبال قد وُكِل بذلك ، فقال : ((لا لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)) .
وهذا فيه أن الداعية على الحق أنه رحيم بخلق الله ، وأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه وبوده أن لو اهتدوا وأن لو كانوا من أنصار الرسل أن لو كانوا من أهل الإيمان الصحيح .
وهذا صاحب هذه القصة هذا الرجل ، هذا بعد موته تمنى أن لو يعلم قومه بما آل إليه من الكرامة وما آل إليه من دخول الجنة لكي يعلموا أنه صادق فيما قال لهم وأنه ما هم عليه أنه باطل ،

وأن الله أعقبه الجنة التي هي مطلب الجميع ، وأنهم سيُعقبون بغير ذلك لأنهم قتلوه لدعوته إلى ما جاء به الرسل .
 قال يا ليت قومي يعلمون تمنى أن قومه يعلمون ما هو فيه من الحال .

....

قال : **بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** وفي قوله بما غفر لي ربي تنبيه إلى أن المرء مهما بلغت رتبته ومهما جاهد ومهما بلغ ومهما دعا ، أنه من أهل الذنوب ، فأفرح ما يكون المرء بأن يغفر له الله جل وعلا الذنب ولهذا قدمه على الكرامة التي هي الجنة التي أعطيها ، قال : **يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي** فالمؤمن أفرح ما يكون بمغفرة الله جل وعلا لذنبه ؛ لأنه بغفران الذنوب يكون ما بعدها تبعاً لذلك ، نسأل الله جل وعلا أن يغفر ذنوبنا جميعاً .
ولهذا تجد في سورة هود وفي غيرها أمر أكثر المرسلين بالاستغفار والتوبة **أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ، **يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير** . كذلك في قصة هود ، في قصة شعيب ، في أكثر قصص الأنبياء فيها الأمر بالاستغفار ، الرسل تأمر الناس بأن يستغفروا ، كذلك الرسل كانوا كثيري الاستغفار ؛ لأنهم يعلمون حق الله جل وعلا، والمرء المؤمن ليس بشيء بلا الاستغفار ؛ لأن الاستغفار هو شرفه ، وهو رفعته ، وقد جاء في الحديث : ((لو أنكم لم تذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون فيستغفرون ، فيغفر لهم)) ؛ لأن اسم الله الغفور ، والغفار لابد أن تظهر أسمائه ، لابد أن تظهر أثاره في خلقه ، وظهور آثار هذا الاسم في الخلق تستدعي أن يكون ثم مخالفة من الناس لأمر الله ، فلابد إذًا أن تقع المخالفة ، ولابد إذًا أن يظهر الاستغفار ، لكي يغفر الله جل وعلا فتظهر رحمة الله بعباده ، وتظهر مغفرته لهم ، ويظهر ما به يكون فضل الله جل وعلا الأعظم عليهم .
قال : **بما غفر لي ربي** يعني بمغفرة ربي لي ، **وجعلني من المكرمين** جعلني يعني صيرني ، من المكرمين ، والمكرم هذا اسم مفعول من أكرم يكرم فهو مكرم ، اكرم يكرم فهو

مكرَم ، ومعنى ذلك أنه إنما أُكرم من غير استحقاق له ،

....

في ذلك ، وهذا يوافق ما جاء في السنة من قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((لن يدخل أحد منكم الجنة بعلمه)) ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ، قال : ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)) ، فقوله هنا : ﴿ **وجعلني من المكرمين** ﴾ فيه التخلص من استحقاق تلك الكرامة ، وأن الكرامة منة من الله جل وعلا ، فالله جل وعلا هو الذي جعله كذلك ، وهذا فيه البراءة من الحول والقوة ، وترك الإعجاب بالنفس ، واستحقاق ما أعطاه الله جل وعلا .

قال بعدها : ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ ، هذا يعني أن قوم ذلك الرجل ، ما أنزل إليهم من بعد قتلهم له ، وقتلهم للأنبياء من جند من السماء يستأصلونهم ، ويقتلونهم ، وما كان الله جل وعلا لينزل عليهم ذلك ؛ لأنهم أهون وأحقر وأسهل من أن يكون ذلك ، بل كان يكفيهم صيحة واحدة فإذا هم قد ماتوا جميعا ، كما قال هنا : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ يعني ما كانت إلا هذا حصل ، يعني لم يعاقبوا ، لم يكن هلاكهم إلا عن طريق الصيحة ، والصيحة تأتي في القرآن ويأتي أيضا الرجفة ، والرجفة من أسفل ، والصيحة من أعلى ، والصيحة والرجفة يأتي بعدها غالبا اللفظ إما مفردا ، وإما مجموعا ، فالصيحة تناسب الإفراد ، والرجفة تناسب الجمع . ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ يعني ليس لهم حس ولا حركة . نكتفي بهذا القدر ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

نعم ، قصب : الأمعاء .اذكر الآيات ، الشعراء ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ يعني الآن أصحاب الأيكة ، هل هم أصحاب مدين ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيب** ﴾ فأصحاب مدين غير أصحاب الأيكة ، بعض أهل العلم يرى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين ، على كل حال هذا تنوع ، تنوع الأذى ، معناه الصيحة جاءتهم من فوقهم ، وجاءهم الرجفة من تحتهم ، وجاءهم الظلة أيضا .